

ترجمة شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية

من كتاب «ذيل تاريخ الإسلام» للإمام محمد بن أحمد الذهبي*

قال رحمه الله تعالى :

اسمه ونسبه:

ابن تيمية، الشيخ، الإمام، العالم، المفسر، المُجتهد، الحافظ، المحدث،
شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التصانيف الباهرة، والذكاء المفرط، تقي

* الإمام الذهبي غني عن التعريف، فهو الإمام العلامة مؤرخ الإسلام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركباني الغارقي الدمشقي الشهير بالذهبي المولود سنة ٦٧٣ والمتوفى سنة ٧٤٨هـ صاحب التصانيف الذائعة الصيت ومن أكبرها تاريخ الإسلام الكبير، وسير أعلام النبلاء وميزان الاعتدال وغيرها من المعاجم والدواوين والتصانيف التي تبين علمه وحفظه وإمامته وشأنه .

تتلمذ علي الحافظ أبي الحجاج المزي (٦٥٤ - ٧٤٢) وعلى أبي محمد القاسم البرزالي (٦٦٥ - ٧٣٩) وعلى الشيخ تقي الدين أحمد ابن تيمية الحراني (٦٦١ - ٧٢٨).

وذبله هذا وصلنا مخطوطاً مضمناً تراجم جماعة من العلماء والفضلاء وغيرهم من بداية القرن الثامن إلى قرب منتصفه تقريباً . فجاء في أول :

«بسم الله الرحمن الرحيم صلّ على أشرف خلقك سيدنا محمد وآله وسلم، أخبرني غير واحد مشافهة وكتابة عن الإمام الحافظ الكبير شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز رحمه الله تعالى عليه قال : هذا مجلد ملحق بتاريخ الإسلام، شبه الذيل عليه فيه نحو من أربعين سنة أولها سنة إحدى وسبعائة . . .» وفي آخره :

« . . تم ذيل كتاب تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام . . . » .

وكتابه كما في آخره هو عبد القادر بن عبد الوهاب بن عبد المؤمن القرشي . وذكر أنه فرغ من نسخها تجاه الكعبة المشرفة في ٢٥ صفر سنة ٨٧٤هـ . من مصورات الأصل المحفوظ بجامعة ليدن بهولندا رقم ٣٢٠ . والنسخة خطها حسن منقوطة غالباً في ١١٦ ورقة، في كل ورقة صفحتان، وفي كل صفحة ٢٧ سطراً، ومتوسط ما في كل سطر عشر كلمات، وفيها تصحيحات وحواش قليلة . وللذيل نسخة أخرى جيدة في المكتبة المركزية بجامعة الإمام بالرياض رقمها ٤١٠٠ عن دبلن بإيرلندا في ١٤٣ ورقة منسوخة في عصر مؤلفها سنة ٧٤٣هـ ومقروءة، لكن يعيها أنها مخروقة الأول بعدة ورقات وترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية فيها في الورقات من (٨٥-٨٧) . ولا فرق جدير بالذكر والإيراد بينها وبين الأصل الذي أعتمده .

الدين، أبو العباس، أحمد ابن العالم المفتي شهاب الدين عبد الحليم ابن الإمام شيخ الإسلام مجد الدين أبي البركات عبد السلام - مؤلف الأحكام - ابن عبد الله ابن أبي القاسم الحراني ابن تيمية، وهو لقب لجدّه الأعلى.

ولادته وهجرته:

مولده في عاشر ربيع الأول، سنة إحدى وستين وستمائة بحرّان، وتحوّل به أبوه وأقاربه إلى دمشق في سنة سبع وستين عند جور التتار؛ منهزمين يجرون الذرية والكتب على عجلة؛ فإن العدو ما تركوا في البلد دواب سوى بقر الحرث. وكلّت من ثقل العجلة، ووقف الفرار^(١) وخافوا من أن يدركهم العدو، ولجأوا إلى الله؛ فسارت البقر بالعجلة ولطف الله تعالى حتى انحازوا إلى حد الإسلام.

شيوخه:

فسمع من ابن عبد الدائم^(٢)، وابن أبي اليُسْر^(٣)، والكمال ابن عبد^(٤)، وابن أبي الخير^(٥)، وابن الصيرفي^(٦)، والشيخ شمس الدين^(٧)، والقاسم

(١) الكلمة في الأصل غير واضحة ويمكن أن تقرأ القرآن بفاء ونون، أو الغران بغين ونون.

(٢) هو الشيخ زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسي (٥٧٥ - ٦٦٨ هـ) سمع عليه الشيخ جزء ابن عرفة كله وغيره. وابن عبد الدائم هو مسند الشام، صرح الشيخ بالسماع منه سنة ٦٦٧ في الفتاوى ٧٧/١٨.

(٣) هو الشيخ تقي الدين إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليُسْر التنوخي المُسند (٥٨٩ - ٦٧٢ هـ) صرح الشيخ بالسماع منه سنة ٦٦٩ هـ في الفتاوى ٧٩/١٨ في الأحاديث الأربعين له.

(٤) هو الشيخ كمال الدين عبد الرحيم بن عبد الملك بن يوسف بن قدامة المقدسي المُسند (٥٩٨ - ٦٨٠) سمع منه الشيخ كما في الفتاوى ١٠٦/١٨ سنة ٦٨٠ هـ. وربما هو كمال الدين عبد العزيز بن عبد الله ابن شبل الدمشقي المُسند (٥٨٩ - ٦٧٢) سمع منه الشيخ سنة ٦٦٩ مع دمشق كما في الفتاوى ٧٨/١٨.

(٥) هو الشيخ المُسند زين الدين أحمد بن أبي الخير سلامة بن إبراهيم الحداد الدمشقي (٦٠٩ - ٦٧٨) قرأ الشيخ عليه سنة ٦٧٥ هـ في الفتاوى ٩١/١٨ - ٩٢.

الأربلي (١)، وابنِ علان (٢)، وخلق كثير (٣)، وأكثر وبالغ وقرأ بنفسه على جماعة وانتخب، ونسخ عدة أجزاء، وسنن أبي داود، ونظر في الرجال والعلل.

علمه ومكانته:

وصار من أئمة النقد ومن علماء الأثر مع التدين والنبالة، مع الذكر والصيانة. ثم أُقْبِلَ على الفقه ودقائقه وقواعده وحججه والإجماع والاختلاف،

= (٦) هو الشيخ المُسند أبو زكريا يحيى بن أبي منصور ابن الصيرفي الحراني المتوفى سنة ٦٧٨هـ قرأ الشيخ عليه سنة ٦٦٨هـ. في الفتاوى ١٨ / ٨٥.

= (٧) هو الشيخ القاضي المسند شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي (٥٩٧ - ٦٨٢) سمع منه الشيخ سنة ٦٦٧ بجبل قاسيون ١٨ / ٩٥ - ٩٦.

(١) هو الشيخ العدل المسند أبو محمد القاسم بن أبي بكر بن قاسم بن غنيمة الأربلي (٥٩٥ - ٦٨٠) سمع منه الشيخ سنة ٦٧٧هـ. الفتاوى ١٨ / ٩٢ - ٩٣.

(٢) هو الشيخ المُسند أبو الغنائم المسلم بن محمد بن المسلم ابن علان القيسي (٥٩٤ - ٦٨٠) سمع منه الشيخ في سنة ٦٨٠هـ. الفتاوى ١٨ / ٩٧ - ٩٨.

(٣) قال ابن عبد الهادي في العقود الدرية ص ٤ « . . . وخلق كثير وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائة شيخ. وسمع مسند الإمام أحمد بن حنبل مرات. وسمع الكتب الستة الكبار والأجزاء. ومن مسموعاته معجم الطبراني الكبير، هذا كله وهو ابن بضع عشرة سنة، فانبهه أهل دمشق من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه. اهـ.

وبالمناسبة فإن الأربيعين حديثاً لشيخ الإسلام ابن تيمية رواها عن واحد وأربعين شيخاً وشيخة، وقد رواها عنه تلميذه صاحب ترجمتنا هذه الإمام الذهبي وهي في مجموع الفتاوى كاملة ١٨ / ٧٦ - ١٢١.

وقد وقع لي رواية صحيح البخاري من طريق شيخ الإسلام ابن تيمية. وأئمة الدعوة السلفية من بعده. فقد أخبرني الشيخ أبو محمد بديع الدين الراشدي السندي بها إجازة، أخبرني أبو محمد عبدالحق الهاشمي المكي، أخبرنا أحمد بن عبد الله بن سالم البغدادي عن عبد الرحمن بن حسن عن جده شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، عن عبد الله بن إبراهيم بن سيف النجدي المدني، عن عبد القادر التغلبي، عن عبد الباقي، عن أحمد الوفاقي، عن موسى الحجازي، عن أحمد الشويكي، عن العسكري، عن الحافظ عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، عن الحافظ شمس الدين ابن القيم، عن الحافظ شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية الحراني، عن الحافظ الفخر ابن النجاري، عن أبي ذر الهروي المالكي عن شيوخه الثلاثة: المستملي والسرخسي والكشمهيني عن محمد بن يوسف الفريدي عن الإمام صاحب الصحيح أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري — رحم الله الجميع ورفع درجاتهم.

حتى كان يقضي منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف ، ثم يستدل ويرجح ويجهد ، وحق له ذلك ؛ فإن شروط الاجتهاد كانت قد اجتمعت فيه ، فإنني ما رأيت أحداً أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه ، ولا أشد استحضاراً لمتون الأحاديث وعزوها إلى الصحيح ، أو إلى المسند منه ؛ كأن الكتاب والسنة نصب عينيه ، وعلى طرف لسانه^(١) ، بعبارة رشقة ، وعين مفتوحة ، وإفحام للمخالف .

وكان آية من آيات الله تعالى في التفسير ، والتوسع فيه ، لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسين .

وأما أصول الديانة ، ومعرفتها ، ومعرفة أحوال الخوارج والروافض والمعتزلة وأنواع المبتدعة ، فكان لا يُشَقُّ فيه غباره ، ولا يلحق شأنه .

مكارم خلاله:

هذا مع ما كان عليه من الكرم الذي لم أشاهد مثله قط : والشجاعة المفرطة التي يضرب بها المثل ، والفراغ عن ملاذ النفس من اللباس الجميل ، والمأكل الطيب ، والراحة الدنيوية .

تصانيفه:

ولقد سارت بتصانيفه الركبان في فنون من العلم وألوان ، لعلّ تواليه وفتاويه في الأصول والفروع والزهد والتفسير والتوكل والإخلاص ، وغير ذلك تبلغ ثلاثمائة مجلد ، لا بل أكثر^(٢) .

(١) بل ذكروا أنه يستظهر مسند الإمام أحمد بن حنبل الذي يحوي قريباً من ثلاثين ألف حديث . وهذا ليس كثيراً عليه فقد قال ابن سيد الناس في وصف علمه : « . . . وكاد يستوعب السنن والآثار حفظاً . . » . اهـ من العقود الدرية ص ٩ .

(٢) مؤلفات شيخ الإسلام هي من الكثرة والانتشار حتى قال تلميذه الملازم له الإمام ابن القيم إني عجزت =

صفاته:

وكان قوَّالاً بالحق، نهائاً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، ذا سطوة وإقدام، وعدم مداراة الأغيار.

ومن خالطه وعرفه قد ينسبني إلى التقصير في وصفه، ومن عانده وخالفه ينسبني إلى التعالي فيه؛ وليس الأمر كذلك، مع أنني لا أعتقد فيه العصمة كلا! فإنه مع سعة علمه، وفرط شجاعته، وسيلان ذهنه، وتعظيمه لحرمان الدين، بشرُّ من البشر تعتريه حدة في البحث، وغضب وشظف للخصم؛ يزرع له عداوة في النفوس، ونفور عنه.

وإلا فلو لاطف الخصوم، ورفق بهم، ولزم الجمالة، وحسن المكاملة، لكان كلمة^(١) إجماع؛ فإن كبارهم وأئمتهم خاضعون لعلومه وفقهه، معترفون بشفوفه وذكائه، مقرون بندور خطائه.

موقف الحاقدين منه:

لست أعني بعض العلماء الذين شعارهم وهجيراهم الاستخفاف به، والازدراء بفضله، والمقت له حتى استجهلوه وكفروه ونالوا منه من غير أن ينظروا إلى تصانيفه، ولا فهموا كلامه، ولا لهم حظ تام في التوسع في المعارف والمعالم. منهم قد ينصفه ويرد عليه بعلم^(٢).

= عن حصرها وتعدادها - من رسالة في أسماء مؤلفات ابن تيمية ص ٩ . وكل من حاول جمع ما يجد لا يستطيع الاستيعاب فهذا ابن القيم وابن عبد الهادي والصلاح الصفدي وابن رجب كل من جمع شيئاً تجد أنه فاتته أشياء ذكرها غيره .

(١) الكلمة في الأصل غير واضحة فتتحمل ما سطرت أو كلمة أخرى هي : كله .

(٢) هكذا قراءتها في الأصل ولسلامة التركيب لا بد من إضافة من الموصولة : «منهم من قد ينصفه ويرد عليه بعلم» .

اعتذار وتنويه:

وطريق العقل السكوت عما شجر بين الأقران - رحم الله الجميع - . وأنا أقل من أن ينبه على قدره كلمي ، أو أن يوضح نبأه قلبي ؛ فأصحابه وأعداؤه خاضعون لعلمه ، مقرون لسرعة فهمه ، وأنه بحر لا ساحل له ، وكنت لا نظير له . وأن جوده حتمي ، وشجاعته خالدية .

ولكن قد نقموا عليه أخلاقاً وأفعالاً؛ فمنصفهم فيها مأجور، ومقتصدهم فيها معذور، وظالمهم فيها مأزور، وغاليهم^(١) مغرور، وإلى الله ترجع الأمور. وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك ، والكمال للرسول ، والحجة في الإجماع .

فرحم الله امرءاً تكلم في العلماء بعلم ، أو صمت بحلم ، وأمعن في مضايق أقاويلهم بتؤدة وفهم ، ثم استغفر لهم ، ووسّع نطاق المعذرة . وإلا فهو لا يدري ، ولا تدري أنه لا يدري ، وإن أنت عذرت كبار الأئمة في معضلاتهم ، ولا تعذر ابن تيمية في مفرداته ؛ فقد أقررت على نفسك بالهوى ، وعدم الإنصاف .

دعوى تكفيره وبطلانها:

وإن قلت لا أعذره لأنه كافر، عدو لله تعالى ورسوله . قال لك خلق من أهل العلم والدين : ما علمناه والله إلا مؤمناً محافظاً على الصلاة والوضوء ، وصوم رمضان ، معظماً للشريعة ظاهراً وباطناً ، لا يؤتى من سوء فهم ؛ بل له الذكاء المفرط ، ولا من قلة علم ، فإنه بحر زخار ، بصير بالكتاب والسنة ، عديم النظير في ذلك .

(١) هكذا في الأصل ، وربما قرأت : غالبهم ، والأولى ما في المتن .

ولا هو بمتلاعب بالدين؛ فلو كان كذلك لكان أسرع شيء إلى مداهنة خصومة، وموافقتهم ومنافقتهم.

ولا هو يتفرد بمسائل بالتشهي، ولا يقتي بما اتفق؛ بل مسائله المفردة يحتاج لها بالقرآن أو بالحديث أو بالقياس، ويبرهنها وينظر عليها، ويفعل الخلاف، ويطيل البحث أسوة بمن تقدمه من الأئمة، فإن كان قد أخطأ فيها، فله أجر المجتهد من العلماء، وإن كان قد أصاب فله أجران.

وإنما الذم والمقت لأحد رجلين: رجل أفتى في مسألة بالهوى ولم يبد حجة، ورجل تكلم في مسألة بلا خيرة من علم، ولا توسع في نقل؛ فنعوذ بالله من الهوى والجهل.

بين الأعداء والمحبين:

ولا ريب أنه لا اعتبار بدم أعداء العالم فإن الهوى والغضب يحملهم على عدم الإنصاف، والقيام عليه.

ولا اعتبار بمدح خواصه والغلاة فيه، فإن الحب يحملهم على تغطية هناته؛ بل قد يعدونها محاسن.

وإنما العبرة بأهل الورع والتقوى في الطرفين، الذين يتكلمون بالقسط، ويقومون لله ولو على أنفسهم وآبائهم.

فهذا الرجل^(١) لا أرجو على ما قلته فيه دنيا ولا مالا ولا جاهاً بوجه أصلاً، مع خبرتي التامة به، ولكن لا يسعني في ديني وعقلي أن أكرم محاسنه، وأدفن فضائله، وأبرز ذنوباً له مغفورة في سعة كرم الله تعالى وصفحه، مغمورة في بحر علمه وجوده؛ فإن الله يغفر له ويرضى عنه، ويرحمنا إذا صرنا إلى ما صار إليه مع أني مخالف له في مسائل أصلية وفرعية، قد أبدت أنفاً أن خطاه فيها

(١) يعني شيخه المترجم له ابن تيمية.

مغفورة؛ بل قد يثبته الله تعالى فيها على حسن قصده، وبذل وسعه، والله الموعد. مع أنني قد أوديت لكلامي فيه من أصحابه وأضداده فحسبي الله.

وصف خلقه:

وكان الشيخ أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه، كأن عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت، فصيحاً، سريع القراءة.

يعتريه حدة ثم يقهرها بحلم وصفح، وإليه المنتهى في فرط الشجاعة، والساحة، وقوة الذكاء.

ولم أر مثله في ابتهاله، واستغاثته بالله تعالى، وكثرة توجهه.

وقد تعبت بين الفريقين: فأنا عند محبه مقصر وعند عدوه مُسرف مُكثر، كلا والله!

وفاته وجنازته:

توفي ابن تيمية إلى رحمة الله تعالى معتقلاً بقلعة دمشق بقاعة بها بعد مرض حدّاً^(١) أياماً، في ليلة الإثنين العشرين من ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة.

وُصِّلَ عليه بجامع دمشق عقيب الظهر، وامتلاً الجامع بالمصلين كهيئة يوم الجمعة؛ حتى طلع الناس لتشييعه من أربعة أبواب البلد، وأقلُّ ما قيل في عداد من شهدته خمسون ألفاً؛ وقيل أكثر من ذلك. وحُمل على الرؤوس إلى مقابر الصوفية، ودفن إلى جانب أخيه الإمام شرف الدين^(٢) رحمهما الله وإيَّانا والمسلمين.

(١) هكذا في الأصل مهملة، ولعلها: جدّاً ياماً. أي: اشتد المرض عليه، وكلاهما يصلح. ذكر ابن رجب في آخر ترجمته له، الذيل ص ٤٠٥، أنه مرض بضعة وعشرين يوماً. وذكر في العقود الدرية ص ٢٤٠: أنه بقى في سجن قلعة دمشق سنتين وثلاثة أشهر وإياماً. وهذا في سجنه الأخير.

(٢) هو أبو محمد عبد الله أخوه الأكبر مات في ١٤ / ٥ / ٧٢٧هـ. كانت جنازته أيضاً مشهورة.

قصيدة في رثاء شيخ الإسلام ابن تيمية للإمام الذهبي^(١) قال فيها:

يا موت خذ من أردت أو فدع
محوت رسم العلوم والورع
أخذت شيخ الإسلام وانفصمت
عري التقى واشتفى أولو البدع
غيت بحرًا مفسرًا جبالاً
حبرًا تقيًا بجانب الشبع
فإن يحدث فمسلم ثقة
وإن يناظر فصاحب اللمع
إن يخض نحو سيويه يُفنه
بكل معنى في الفن مخترع
وصار عالي الإسناد حافظه
كشعبه أو سعيه الضبعي
والفقه فيه فكان مجتهدًا
وذا اجتهاد عار من الجزع

(١) هذه القصيدة ذكرها في العقود الدرية ص ٢٨٨ مع مراتٍ كثيرة قيلت في الشيخ وبالمناسبة تنسب للذهبي نصيحة ذهبية، وقد قرأتها فإذا هي تناقض ما هاهنا من ترجمته له، والشك أصلًا في نسبتها إليه، لا سيما وناشروها هم خصوم الشيخ، وهم متهمون.

وجوده الحاتمي مشتهر

وزهده القادري في الطبع

أسكنه الله في الجنان ولا

زال علينا في أجمل الخلع

مع مالك والإمام أحمد والنعم

مان والشافعي والنخعي

مضى ابن تيمية وموعده

مع خصمه يوم نفخة الفزع